

في سنوات الحرب

كتاب الساكنين ...



كان الرافى — رحمه الله — شاعر النفس ، مرهف الحس ، رقيق القلب ، قوى العاطفة : يرى المنظر الأليم فتنفعل به نفسه ويتحرك خاطره ويتفطر قلبه ؛ وتقص عليه نبأ الفاجعة فلا تلبث وأنت تحكى له أن تلمح فى عينيه بريق الدمع يحبسه الحياء . ولقد كان الرافى يقرأ فيما يرد إليه من بريد قرائه كثيراً من المأسى الفاجعة يسأله أصحابها الرأى أو المعونة ، فما يقرؤها إذ يقرؤها كلاماً مكتوباً ، ولكنها تحت عينيه حادثة يشهدها ويرى ضحاياها ، فما تبرح ذا كرته من بعد إلا مع الزمن الطويل .

ولقد وقعت الحرب واستعرت نارها فى الميادين البعيدة لا يبلغ إلينا منها نارٌ ولا دخان ولا يراق دم ، ولكنها أرسلت إلى مصر الفقر والجوع والغلاء ، فما كان ضحاياها فى مصر بالجوع والمترية أقل عديداً من ضحاياها هناك فى الميدان .. كيف كان يعيش العامل المسكين فى تلك الأيام ؟ رباه ! إننى ما أزال أذكر يوم أرسلنى والدى — وأنا غلام بعد — أستدعى النجار لعمل عندنا ، فوجدته جالساً فى أهله يأكلون : كانوا ستة قد تحلقوا حول قصعة سوداء فيها كومة من فتات الخبز إدامه الماء ، تتسابق أيديهم إليه فى نهم كأنما يخشى كل واحد أن تعود يده إلى القصعة بعد الأوان فلا يجد اللقمة الثانية ... !

هكذا كان يعيش نصف الشعب فى تلك الأيام السود مما فعل القحط والغلاء ، لأن أقوات الشعب قد سُحلت إلى الميدان لتخزن فى دار المؤن وقتاً ما ، لتقذفها من بعد قنابل المحاربين وتذروها رماداً فى الهواء ... !

ونظر الرافى حواليه فارتد إليه البصر حسيراً مما يرى ويسمع ، فاحتبس الدمع فى عينيه ولكن قلبه ظل يتحدث بمعانيه .

ومضى عام وعام والحرب ما تزال مستمرة ، والبؤس تتعدد ألوانه ، وتشكل صوره ، وتحشد آثاره ؛ والرافى دائم الحديث إلى نفسه وهو يحمل من هم الشعب في قلبه الكبير ، حتى امتلأ الإناء يوماً ففاض ...

في بعض اللحظات التي تفيض فيها النفس بالألم ، يحس الإنسان كأنه شيء له في نظام الكون إرادة وتدير ، وأن من حقه أن يقول للمقدور : لماذا أنت في طريقى ... ؟ فتراه في بعض نجواه يتساءل : رب ، لم كتبت على هذا ... ؟ لماذا حكمت بذلك ... ؟ لماذا قدّرت وقضيت ... ؟ ما حكمتك فيما كان ... ؟ ألم يكن خيراً لو كان ما لم يكن ... ؟ ثم يشوب إلى نفسه وينىء إلى الحق ، فيعود معتذراً يقول : رب ، لقد ظهرُ حُكمك ، ودقت حكمتك فغفرة وعفواً ... !

وتظل حكمة الله مطوية في ظلمات الغيب ، لا يتنوّرها إلا من غمره شعاع الإيمان وسطع في قلبه نور الحكمة ؛ أما الذين تعبّدتهم شهوات أنفسهم فهم أبداً في حيرة وضلال .

في لحظة من تلك اللحظات ، أغمض الرافى عينيه وراح يفكر ، وفي رأسه خواطر يموج بعضها في بعض ؛ ثم فاءت نفسه ، فرفع رأسه وهو يقول : « رب ما أدق حكمتك وأعظم تدبيرك ... ! » وأفاض الله عليه ورفع عن عينيه الغطاء ... وعاد ينظر إلى الناس يأكل بعضهم بعضاً ، ويسرق بعضهم أقوات بعض ، ويتزاحمون على الحياة فيسارعون إلى الموت ؛ فدمعت عيناه ولكنه كان يتسم ، وعاد يقول : « حكيم أنت يا رب ! ليتهم وليتنى ... ليتهم يعلمون شيئاً من حكمة الله في شيء من أغلاط الناس ! ... كل شيء في هذا الكون العظيم يجري على قدر منك وتدير حكيم ! »

ثم شرع يؤلف كتابه « الساكنين »

كتاب المساكين

أخرج الرافعي كتابه هذا في سنة ١٩١٧ ، وهو الكتاب الرابع مما ألف في الثور ، وثاني ما ألف في أدب الإنشاء ، ويعرّف به الرافعي في الصفحة الأولى منه فيقول : هو كتاب « أردتُ به بيان شيء من حكمة الله في شيء من أغلاط الناس ... »

وقدم له بمقدمة بليغة في معنى الفقر والإحسان والتعاطف الإنساني يقول فيها : « هذا كتاب حاولت أن أكسو الفقر من صفحاته مرقعةً جديدة ... فقد والله بليت أثواب هذا الفقر وإنها لتندل على أركانه مرقاً مهدّلة يمشي بعضها في بعض ، وإنه ليلفّقها بخيوط من الدمع ويمسكها برقع من الأكباد ويشدها بالقطع المتنافرة من حسرة إلى أمل ، وأمل إلى خيبة ، وخبية إلى هم ؛ وأصبح من الفقر ألا يظهر الفقر كاسياً أو تكون له زينة إلا من أوجاع الإنسانية أو المعاني التي يتمنى الحكماء لو أنها غابت في جماجم الوقتي الأولين ... »

والكتاب فصول شتى ، ليس له وحدة تربط بين أجزائه ، إلا أنه صور من آلام الإنسانية كثيرة الألوان متعددة الظلال ، تلتقي عندها أنة المريض ، وزفرة العاشق ، ودمعة الجائع ، وصرخة اللهفان المستغيث ؛ فهنا صورة (الشيخ على) الرجل الذي يعيش بطبيعته فوق الحياة وفوق الناس لأنه يعيش في نعمة الرضا ، وإلى جانبه قصة الغني الشيخ الذي حسب أنه سيطر على الحياة لأنه ملك المال ، وهذه صاحبته الحسناء الصغيرة التي انتشلها الشيخ بماله من الفقر الجائع فوهب لها المال ولكنه سلبها نعمة الشعور بالحياة ، وهذا ، وهذه ... من صور المساكين الذين يعيشون محتسون الدموع أو يتطهرون بالدموع .

وأول أمر الرافعي في تأليف كتاب المساكين أنه كان في زيارة أصهاره في (منية جناح) فلقى هناك الشيخ على ، والشيخ على هذا رجل يعيش وحده

ليس له جيب يمسك درهما ، ولا جسد يمسك ثوباً ، ولا دار تؤويه ، ولا حقل يغل عليه ؛ يجمع فيهبط على أول دار تلقاه يتناول ما يمسك رmqه ، ويدركه النوم فيتوسد ذراعاه حيث أدركه النوم من الدار أو الطريق . رجل يعيش بطبيعته فوق كل آمال الناس ، وآمال الحياة . ولقيه الرافعى واستمع إلى خبره ، فعرف من فلسفته فلسفة الحياة ، ووجد عنده الحل لكل ما فى نفسه من مشكلات ، فكان هذا الكتاب من وحي الشيخ على الفيلسوف الصامت فى الرافعى الأديب ، واجتمعت له مادة الكتاب فى مجلس واحد لم ينطق فيه أحد بكلمة

ويعصف الرافعى الشيخ على فيقول :

« ... هو حلیم لنفسه ، غضوب لنفسه ؛ وكذلك هو فى الخفة والوقار ، والضحك والعبوس ، والزهو والانقباض ، وفى كل ضدين منهما لذة وألم ؛ كأنه جزيرة قائمة فى بحر لا يحيط بها إلا الماء ، فلا صلة بينهما فى المادة وإن كانت هى فيه ؛ فالتاس كما هم وهو كما هو يرونه من جفوة الزمان أضعف من أن يصاب بأذى ، ويرى نفسه من دهره أقوى من أن يصيب بأذى ؛ ويتحاشونه رأفة ورحمة ، ويتحاماهم أنفة واستغناء ؛ ثم إن مسه الأذى من رقيق أو سقيط أحسن إلى الفضيلة بنسيان من أساء إليه ، فيألم وكأن ألمه مرض طبيعى ، ولا فرق عنده فى هذه الحال بين أن يمتنع بطنه بالداء أو يمتنع ظهره بالمصا ... ! وهو والدنيا خصمان فى ميدان الحياة ، غير أن أمرها مختلف جداً ، فلم تقهره الدنيا لأنه لم يطمح إليها ولم يقع فيها ، وقهرها هو لأنها لم تظفر به ... »

« ... وهو رجل سدت فى وجهه منافذ الجهات الأربع كلها إلا جهة السماء ، فكأنه فى الأرض بطل خيالى يرينا من نفسه إحدى خرافات الحياة ، ولكنه مع ذلك يكاد يخرج للدنيا تلك الحقيقة الإلهية التى لا تغذوها مادة الأرض ولا مادة الجسم ، فهى تزدري كل ما على الأرض من متاع وزينة وزخرف ، وكل ما ردت عليك الغبطة من بسطة فى الجسم أو سعة فى المال أو فضل فى المنزلة ، وكل ما أنت من إقباله على طمع ومن فوته على خوف ... »

« ... فهو أجهل الناس في الدنيا وأجهل الناس بالدنيا ... وأنت إذا سطلت له بالجوهرية الكريمة النادرة ، فلا يعدو أن يراها حصة جميلة تتألق ، وإن هوّلت عليه بألوان الخبز والدياج ، حسبك ماثقاً لم ترقط نضارة البرسيم وألوان الربيع ... »

هذا هو الشيخ على الذي أوحى إلى الرافى كتاب المساكين ونسب إليه القول فيه وردّه إلى إلهامه ، وهو عنده النموذج الكامل للرجل السعيد والفيلسوف الصحيح وقد فرغ الرافى من كتاب المساكين فى سنة ١٩١٧ ؛ وفرغ الشيخ على من دنياه بعد ذلك بقليل ، ولكن روحه ظلت تعمل فى نفس الرافى وتملى عليه وتلهمه الرأى إلى آخر أيامه بعد ذلك بعشرين سنة ؛ والواقع أن الرافى كان يؤمن بفلسفة التسليم والرضا فيما لا طاقة له به ، إيماناً كان مادة حياته ونظام عمله . وإيمانه ذاك هو الذى كان يفيض عليه أمارات المرح والسرور حتى فى أعصب أوقاته وأخرج ساعاته ، فكنت لا تراه إلا مبتسماً أبداً أو ضاحكاً ضحكة السخرية والاستسلام .

كتاب المساكين الذى يقول عنه المرحوم أحمد زكى باشا :

« لقد جعلت لنا شكسبير كما للأنجليز شكسبير ، وهيجو كما للفرنسيين هيجو ، وجوته كما للألمان جوته » .

... هو كتاب اجتمع على إخراجه سيان : أهوال الحرب التى حطت على مصر بالجوع والقحط والفلاء ، والشيخ على الجناحى .

